الأصنام التي لم تُهدم!

من المعروف أن فتحَ النبيِّ ﷺ مكةَ، في العام الثامن من الهجرة، قد أنهى عبادةَ الأصنام في جزيرة العرب.. وأنه ﷺ بتحطيمه الأصنام من حول الكعبة، والتي بلغت ثلاثمائة وستين صنمًا، قد أزال عهودًا من الشرك والوثنية؛ عُبِدت فيها الأصنام من دون الله، واتُّخِذت زلفى يُتقرَّب بها إلى الله.. وهو سبحانه الغني عن ذلك، وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا..

لكن الملاحظ أن ثمة أصنامًا مازالت تُعبد، وأن أوثانًا ما زال الناس يطوفون حولها، وأن آلهة من دون الله ما زالت تحظى بقدسية ومكانة عظيمة، ما كانت تنبغي إلا لله تعالى وحده لا شريك له..!

ولسنا نعني بذلك حديثًا عن غير المسلمين؛ فهؤلاء- كما قضت سنة الله في الصراع بين الحق والباطل- سيظلون موجودين، إلى أن يفصل الله بين عباده يوم الدين.

لكننا نعني بذلك "الأصنامَ" التي هي موجودة في حياة المسلمين، وفي بلادهم.. لكنها ليست أصنامًا من حجارة، أو من عجوة، كأصنام مكة وغيرها؛ بل هي أصنام قد اتخذت أشكالاً متعددة، معنوية ومادية.. وهي رغم هذه الأشكال المتعددة المتغيرة، قد احتفظت بمكانتها في نفوس أتباعها، والمفتونين بها..!!

فنعني بـ"الأصنام" هنا، كلَّ ما يتخذه المرء ثابتًا في حياته لا يقبل التغيير، ومقدَّسًا لا يمكن أن يُنَال من مكانته، ومُهمًّا لا يَتقدم عليه شيء.. وإنْ خالف الحق، وإن جاوز الصواب، وإن أغضب الله..!

هنا يتحول هذا "الشيء"- الذي يُثبِّته الإنسان في حياته، ويَفترض له القداسة، والمكانة المهمة؛ رغم مخالفته للشرع- إلى "صنم" يعبده المرء من دون الله..!

وحتى يتضح المقصود، سأضرب مثالين؛ أحدهما يتصل بالحياة العامة والمجتمع، والآخر بالحياة الخاصة والفرد.

"الأوطان".. حين تتحول إلى أصنام!

لا شك أن حب الوطن قيمة كبرى فُطِر عليها الناس؛ إذ هي محلٌّ للذكريات والعلاقات الجميلة، مع الوالدين والأقارب والأصدقاء.. ثم إن حبها ضرورة للاجتماع البشري؛ فالمكان إطار مادي يتحرك فيه الإنسان، كما أن الزمن إطار معنوي.. فإذا كان لكل إنسان عمره وزمانه؛ فلابد له من مكان يتحرك فيه، وينتمي إليه، ويدافع عنه، ويبذل نفسه راضيًا لحمايته والذود عنه.

والإسلام قد جعل الدفاع عن الأوطان فريضة، وجعل الإخراج منها سببًا من أسباب القتال، وقَرَنَ بين "الفتنة في الدين" و"الإخراج من الديار" من حيث إنهما يمنعان من إقامة علاقة حسنة مع الآخرين الذين يفتنون المسلمين في دينهم ويطردونهم من أوطانهم.. فقال تعالى: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} (البقرة: 191). وقال أيضًا: {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة: 8، 9).

إلى هذا الحد وحب الأوطان يبدو شيئا فطريًّا وعاديًّا ومقبولاً، ومقدَّرًا في الإسلام.. لكن أن تتحول الأوطان بذاتها إلى قيمة عليا لا تُمَس، ومقدَّسًا لا يُناقَش، وتصبح قيمة فوق قيم الإسلام، وفوق العدل وحفظ الحقوق بين الناس، وأن تصبح الأوطان معيارًا للموالاة والمعاداة، بغض النظر عن موافقة ذلك أو مخالفته لحدود الشرع.. فهذا ما يُخرج حبَّ الأوطان عن حدِّه المقبول والمقدَّر، إلى حدٍّ تُصبح معه الأوطانُ وثنًا وصنمًا..!

وهذا هو شأن الأوطان في القوميات المعاصرة، التي تجعل من هذه البقعة الجغرافية أو تلك، معيارًا للسلم والحرب، ومبدأً فوق أي مبدأ، ومقدَّسًا فوق أي مقدس..!

وخطورة هذا الأمر، أن الأوطان في حقيقتها ما هي إلا مكان جغرافي من التراب، يعيش فيه الإنسان ويتحرك عليه.. فإذا تحول هذا التراب إلى "صنم"، فإنه يصبح مَصْدرًا للقيم والمبادئ، ويصبح أعلى من مفاهيم العدل والمساواة وإنصاف الغير من النفس.. وحينئذ، فإن الإنسان بدلاً من أن يستمد مبادئه وقيمه ومِعْياره من الشرع، ومن موجبات الفطرة الصحيحة والعقل المستقيم؛ فإنه يستمد مبادئه من حدود جغرافية، أي من التراب، أي من المادة..

فالفهم الصحيح يدلنا على أن الأوطان "وعاء" لحركة الإنسان، وليست مَصدرًا للقيم، وأن هذا "الوعاء" يحتاج لما يُملأ به، وهو المنهج؛ المستمَد من أوامر الله تعالى ونواهيه.. وبقدر ما إننا مطالَبون- فطرةً وديناً – بالحفاظ على هذا "الوعاء"؛ فإننا مطالبون أيضًا بألا يطغى "الوعاء" على "المحتوى"، ولا المادة على المنهج، ولا التراب على النور والحق والقيم.

وقد خسر العرب كثيرًا حين تمسكوا بـ"الأوعية"، وتقوقعوا في حدود التراب الفاصلة بينهم، ونسوا "المحتوى" وأضاعوا "المنهج" الذي يجمعهم ويوحِّدهم.. فتبدَّدت قدراتهم الهائلة في معارك جانبية، ليس لها نصيب من القِيَمِية والمبدئية، وكانوا لقمة سائغة أمام عدو متربِّص شَغَلهم بأنفسهم عن الاحتراز منه والتصدي لخطره..!

"الأهواء".. حين تصبح أصنامًا

وهذا مثال آخر للأصنام في حياتنا، لكن على مستوى الفرد.. فحين يلهث الإنسان وراء رغباته، ويحاول جاهدًا إشباع نزواته وتلبية أهوائه؛ مهما كانت العواقب، ومهما تخطى من حدود الله، وتجاوز من حقوق العباد؛ فإنه عندئذ يكون قد اتخذ هواه "صنمًا" يعبده من دون الله!

ولخطوة اتباع الهوى، فقد حذرنا الإسلام منه، وأخبرنا بأنه يصد عن اتباع الحق، ويمنع من الانقياد له؛ فقال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (القصص: 50).

قال النسفي في تفسيره: "فإن لم يستجيبوا دُعَاءَكَ إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد أُلْزِمُوا ولم يَبقَ لهم حجةٌ إلا اتباع الهوى. {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ} أي: لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه".

ولعل مما يلفت النظر في أمر التحذير من اتباع الهوى، أن القرآن الكريم لم يكتفِ بكلمة "الاتباع" فيما يخص الانقياد للهوى، بل تجاوزها إلى وصف أشد، وهو العبادة، وليس مجرد الاتباع! فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجاثية: 23).

جاء في (التحرير والتنوير): "والمعنى: أن حِجَاجهم المسلمين مُرَكَّزٌ على اتباع الهوى والمغالطة.. و(إِلَهَهُ): يجوز أن يكون أُطْلِقَ على ما يُلازَمُ طَاعَتُهُ حتى كأنه معبود؛ فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي اتخذ هواه كإلهٍ له لا يخالف له أمرًا. ويجوز أن يبقى (إِلَهَهُ) على الحقيقة، ويكون (هَوَاهُ) بمعنى مَهْوِيِّهِ، أَيْ عَبَدَ إلهًا لأنه يحب أن يعبده؛ يعني الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا يُقلعون عن عبادتهم لأنهم أحبوها، أي ألفوها وتعلقت قلوبهم بعبادتها، كقوله تعالى: {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}".

وقال النسفي: "{أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}؛ أي: هو مِطْوَاعٌ لِهَوَى النفس؛ يتَّبع ما تدعوه إليه؛ فكأنه يعبده، كما يعبد الرجل إلهه".

وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: "ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ مِنَ الْخُيَلاءِ" (المعجم الأوسط للطبراني، وحسنه الألباني بمجموع طرقه).

إذن، فحين يتبع المرء هواه، وينساق خلف رغباته وشهواته، ولا ينظر إلى حدود الله فيجتنبها، ولا إلى محارم الخلق فيبتعد عنها؛ فإنه يكون قد أحلَّ هذا الهوى في نفسه محلَّ "الصنم"، وأعلا مرتبته عنده فوق أي مرتبة.. وبالتالي، يجيء سلوكه العملي تبعًا لهذا الهوى، وليس تابعًا للشرع.. ولذا، روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ" (حسنه النووي في "الأربعين").

بهذين المثالين يتضح لنا أن أصنامًا كثيرة- غير أصنام الحجارة المشهورة- قد تُتخذ، من قِبَل الأفراد والمجتمعات، وأن هذا أمر خطير يُبعِد المرءَ عن طاعة الله والانقياد لأمره والاستسلام لمنهجه.. وأن على الإنسان- وبالتالي المجتمعات- أن يراجع نفسه، فلربما قد أحب شيئًا لدرجة تعميه عن كيفية تحقيقه: أمشروعة هي، أم ممنوعة؟ أموافقة للحق أم متجاوزة إلى الباطل؟

إن ما أمر به الله تعالى، وما بلغنا رسوله الكريم ﷺ؛ ينبغي أن يكون هو وحده المعيار والميزان.. به نرضى وننقاد، وعليه نوالي ونعادي.. {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} (البقرة: 165).